دور الرقابة السياسية في تراجع الوظيفة البنائية والمعرفية لأهل الأدب في البلدان العربية

تقديم:أ.مها المصري

maha_masri2006@yahoo. com

تقديم:

يعتبر هذا الموضوع من أهم الموضوعات التي يجب دراستها خاصة وأنه يبحث في علاقة السلطة بالأدباء والمفكرين أو من كانوا يعرفون قديما "بأهل الأدب" وحديثا بمهندسي الحياة، الأهمية تكمن في أن هؤلاء الأدباء يقومون بوظيفة هامة على رأسها إنتاج المنظومات الثقافية والايديلوجية التي تؤطر لكل تحول حضاري، وتصوغ منه حوافز لتحولات لاحقة، وتفرز منه سمات جديدة تضاف إلى مكونات الهوية وتعطي القدرة على تجديدها.

ويعتبر الفرق بين المجتمعات المتقدمة والاخرى المتخلفة في أن الاولى تؤهل طاقات الأدباء الكامنة فيهم لتحويلها الى مستوى أرقى من العطاء والابداع،في الوقت الذي تعيق فيه مجتمعات أخرى هذه الطاقات والعقول،وأصدق ما يعبر عن ذلك ما حققه أبناء تلك المجتمعات من انجازات معرفية متميزة، بعكس من كان يتفوق عليهم معرفيا وبقي في مجتمعه خاملا مقيدا، فأصابه الركود والتراجع لعدم ملائمة البيئة المحتضنة بشكل عام، والبيئة السياسية بشكل خاص.

وتعد حرية التعبير عن الفكر المحور الاساسي في العلوم الانسانية والاجتماعية الفكرية أكثر منها في العلوم التقانية أو الطبيعية بسبب طبيعة الموضوع، الأمر الذي جعلها بحاجة الى الحريات اللازمة المدنية منها والسياسية والتي تعاني أوضاعا متخلفة في العالم العربي، فكثيرا ما خضعت وما زالت هذه العلوم الى معيقات شتى أثرت على حرية التفكير فيها، بعد أن تم رسم الخطوط الحمراء لها، لتصبح هذه المعيقات إلى جانب الطابع السياسي ذات أثر فعال على الاتجاه المعرفي للمجتمعات العربية قادتها بسبب ذلك إلى اكراهات معرفية من خلال حرمان هذه المجتمعات من قدراتها المعرفية.

أهمية الحرية الفكرية والابداعية تكمن في أنها تعتبر حجر الزاوية التي تقوم عليها باقي حقوق الانسان لتصبح شرطا لوجود الانسان وتطوره وتقدمه،ولما كان المجتمع الديمقراطي هو المجتمع الذي يحتضن المؤسسات الاجتماعية ويجعل لها دورا فاعلا لتحقيق أهدافها، تظهر الحرية الفكرية كأهم الازمات التي تعاني منها تلك المجتمعات بعد غياب التقاليد الديمقراطية عن أنظمة الحكم القائمة، لان الحرية تحميها الحرية والمزيد من الحرية وليس التضييق والقهر.

مصطلحات الدراسة

الأدب اصطلاحا : الكلام البليغ الذي أراد صاحبه التأثير في قارئيه وسامعيه، سواء أكان هذا الكلام شعرا أو نثرا،و رغم اختلاف العلماء على تعريفه نجدهم اتفقوا على تعريف مضمونه ومحتواه . ففي جامعة أكسفورد البريطانية عرف الادب بأنه: " مجموعة من الكتابات القيمة والاعمال الفنية مثل الشعر والروايات والمسرحيات"، كما وأنه" نوع جميل من الكتابة يحتوي على أحاسيس الكاتب وتخيلاته مع عدم اغفال الجانب الفني والموسيقي الذي يضفي نكهة خاصة لتلك الكتابة"[١].

ويعرفه الدكتور يسري عبد ا على أنه: فعل ثقافي مهمته تحرير الوعي الإنساني،لهذا أكد على رفضه كل أشكال القيود التي تكبل حركته وتعيقها٢.

كما أجمعت معظم التعريفات على أنه امتزاج العقل بالاحاسيس وتفاعل الوضع الذهني بالوضع النفسي.

الاديب: من استطاع الجمع بين القدرة على الافصاح السليم عما يلوح في صدره ويعتمل في فكره من أفكار ومشاعر، يخضعها فيما بعد لعملية صقل وتهذيب تتناسب مع موروثاته ومعتقدات شعبه[٣].

وإذا ما اجتمع للأديب صفاء الذهن وعمق الشعور وحساسية الروح، يصبح قادرا على التعبير عن أحاسيسه الداخلية بشكل أدق وأسرع من سواه.

الرقابة: تعرف موسوعة كولومبيا الامريكية الرقابة على أنها منع وتقييد أي شكل من أشكال التعبير يعتقد أنه يهدد النظام السياسي، ويتم فرض هذا المنع من قبل الحكومات لتقيد الصحافة والخطاب والمسرح والادب والفن والسينما،و الهدف منها الوقاية أو التأديب قبل أن يعلن الموضوع المثير للجدل للناس أو بعد ذلك، وقد ظلت الرقابة أداة من أدوات السلطة منذ عهد الامبرطورية الرومانية حتى يومنا هذا

وتعريفات الرقابة ترى فيها أعلى درجات الانحطاط الفكري والثقافي لمساهمتها في تشويه صورة الأدباء والكتاب أمام العالم باعتبارها تقييد لديمقراطية حرية الرأي.

المثقف: صفة الرجل الفصيح المجادل ذو البلاغة العالية، ويسعى لنشر الفضيلة السياسية عن طريق البلاغة والخطابة وسحر اللغة.

أسئلة الدراسة

حاولت الباحثة جادة الإجابة على السؤال الاساسي التالي:

هل الدور الهام لكلمة الادباء وتخوف الانظمة منها، وراء ما تمارسه السلطة السياسية من تقييد للحريات ومصادرة للحقوق؟

والإجابة على هذا التساؤل تطلبت البحث في الموضوعات التالية:

- ما هي البيئة التي تمكن الادب من خدمة السياسة؟
- هل واقع الادب في البلدان العربية يعكس عنوان الادب الموجه والتابع؟
- هل الموانع المفروضة على حرية الادباء كفيلة بالغاء أي دور واضح للادب في الحياة السياسية؟
- ما هي الصفة المناسبة لعلاقة الأدب والسياسة التنافر أم التواؤم؟

دور الأدب في خدمة مجالات الحياة عامة والحياة السياسية خاصة

للأدب وظيفة ذات بعدين: بعد جمالي وما يتعلق به من عاطفة وتذوق وخيال، وبعد رسالي وما يتعلق به من فكر ورؤية وتوجيه للسلوك،وبذلك لايمكن اعتبار الأدب ترفا بل ضرورة لكونه نشاطا إنسانيا لا يمكن الاستغناء عنه ،فمثلما يغذي الجوانب الوجدانية، يغذي العقل والفكر أيضا.

وللأدب دور هام في التهذيب والتعليم والسعي نحو تحقيق هدف اجتماعي إصلاحي،فهو أداة نافعة إن أحسن استخدامها في خدمة المجتمع، إلى جانب كونه فن يسلي النفس وينشد الجمال، والجمع بين المنفعة والجمال تتمثل في القول :"إنما هم الشاعر أن يعلم ويمتع".

وقد أشار ابن قتيبة في مقدمة"عيون الأخبار" إلى وظيفة الأدب، موضحا الهدف من الأشعار والأقوال في تربية النفس وتهذيبها ورياضتها على معالي الأمور وزجرها عن سفاسف الأمور، بل وأكثر من ذلك فالأدب يدال على ا كما هي وظيفة الدين في تبيان الحق والباطل، يقول ابن قتيبة في ذلك :" هذا الكتاب وان لم يكن في القرآن والسنة وشرائع الدين وعلم الحلال والحرام دال على معالي الأمور مرشد لكريم الأخلاق زاجر عن الدناءة ناه عن القبيح باعث على صواب التدبير وحسن التقدير ورفق السياسة وعمارة الأرض، وليس الطريق إلى ا واحدا ولا كل الخير مجتمعا في تهجد الليل وشرد الصيام وعلم الحلال والحرام،بل الطرق إليه كثيرة وأبواب الخير واسعة"٤ .

كما ويسهم الأدب في تشكيل الوعي البشري، وتعديل الاتجاهات ،وتشكيل مسارات الناس نحو سلوك معين، ويسهم في الريادة والاستكشاف لكثير من القضايا العلمية.

وللأدباء دور هام في توعية الجماهير وتنوير الطريق أمامهم وأخذهم نحو الحرية، يقـول الكواكبي في ذلك: " والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شـيئا، والعلمـاء هـم إخـوتهم الراشدون، إن أيقظوهم هبوا، وان دعوهم لبوا، وإلا فيتصل نـومهم بـالموت" ويضـيف :"والعلماء الحكماء الذين ينبتون أحيانا في مضايق صخور الاستبداد يسعون جهدهم فـي تنوير أفكار الناس" مشيرا بذلك إلى أنهم موجودون حتى في أصـعب الأوقـات لإنـارة الأفكار، رغم ظلم المستبد وضغطه عليهم.

وفي حال عدم تمكن الأديب من فضح المستبد علانية لجأ إلى ذلك عبر قصص تاريخية خوفا من بطش المستبد ، كما ويحاول الأدباء توعية الشعب إلى عدم المداهنـة والنفـاق للمستبد حتى لا يتمادى، يقول خليل مطران :

وتروح حولهما الجموع وتغتدي-كالموج وهو مدافع يتتالى

ناداهم الجلاد هل من شافع-لبزر جمهر ؟فقال كل:لالا

وكأنه يقول أن الشعب إذا طأطأ رأسه للمستبد أصبح كالغنم التي تساق بين أيدي الجزار، فالمستبد الذي يكمم الأفواه ويقيد الحريات كثيرا ما كان الموضوع الأهم في كتابات الأدباء فهاهو محمد حسنين هيكل يشير إلى أبشع الجرائم بحق الأدباء والمفكرين والعلماء بقولـه "في عصور الظلمة التي تمر بالأمم آنا بعد آن يعمد الباطشون إلى تقييـد حريـة القـول والكتابة،وفي سبيل هذا التقييد يصلون أرباب الأقلام حربا لا رحمة فيها ولا هوادة فمـن إرهاق إلى سجن إلى نفي وتشريد"

والخوف من الأدباء سببه الخوف من حرية التعبير، لان حرية التعبير رمز لحرية الإنسان الكاملة التي تحققها منوط بتحقيق جوانب الحرية كلها، وقد وضح هيكـل سـبب معـاداة المستبد لحرية الأدباء "أما أن يحارب البغاة القلم وحرية أربابه فلهم في ذلك كـل العـذر، فحرية القلم هي المظهر الأسمى لحرية الإنسان في أسمى صورها ومظاهرها"

وعن مساهمة الأدب في تغيير الواقع ودوره بالتالي في تدفق الإبداع يقول هيكل :"ونحـن ما نزال نرى ثمرات الأقلام منذ آلاف السنين الماضية هي التي تهز العالم حتى اليوم هزا ،وتنشئ فيه إلى اليوم والى الأبد ألوانا من الخلق جديدة"، فالتغيير على مر التاريخ معظمه بتأثير الفكر والأدب.

خلاصة ما سبق أن الأدباء يكشفون الاستبداد ويصـفون طبيعتـه ويفضـحون جريمتـه ،يضيئون طريق الشعب نحو مواجهة الاستبداد ويحرضونه على الثـورة ويحثـوه علـى النهوض نحو الحرية . لتغدو وظيفة الأدب في أن قراءة ما يلمسه الإنسان في الحيـاة لا أن يسمع به فقط٥.

وفي توضيحه العلاقة التي تربط الحاكم المستبد برعيته "المستبد يتحكم في شؤون الناس بإرادته لا بإرادتهم ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي فيصنع كعب رجله على أفواه الملايين يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته"، يحاول عبد الرحمن الكواكبي توضيح عدم اكتراث المستبد بإرادة المحكومين أو شريعتهم، في الوقت الذي يدينون فيه له،وإنما يحكمهم حسب هواه مستخدما القوة إذا ما حاول أحدهم التكلم أو النقاش.

وواقع الاستبداد هذا يوضح العلاقة بين المستبد وأهل العلم فيقول :"الاستبداد والعلم ضدان متغالبان فكل إدارة مستبدة تسعى جهدها في إطفاء نور العلم" ،" الاستبداد أصل لكل فساد ... فالمستبد يضغط على العقل فيفسده، ويلعب بالدين فيفسده، ويحارب العلم فيفسده".

فللأدب إذن دور في حماية المجتمع من هيمنة السياسي على مجريات الحياة، وهنا يتضح الفرق بين أديب السلطة الذي يوصف ببوق السلطة،و الأديب الحق الذي يمثل الحصن المنيع لحقوق الإنسان وحرياته. وهذا يعتمد على اللغة الموظفة في ذلك، فمثلما يسهم الأدب في حماية اللغة ومنحها المنزلة التي تستحق إذا كان الحديث عن اللغة النزيهة التي تفضح الزيف والكذب، تفقد اللغة منزلتها الأسمى إذا ما وظفت لخدمة مصالح السلطة السياسية.

علاقة الأديب بالسلطة

ظهرت السياسة قديما في ثنايا القصيدة العربية، فالسياسة محور شعر زهير بن ابي سلمى،والسياسة قتلت طرفة بن العبد وأخافت النابغة الذبياني،كما وانخرط الشعر في الجيش في حرب ذي قار، واعتبر جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم من كبار شعراء السياسة، ومن عمالقة الادب والسياسة المتنبي والمعري،

والعلاقة بين الادب والسياسة مستمرة وشهدها شعر شوقي والبارودي ونزار قباني لكن كنا نجد هذين الحليفين اما متنافرين أو متوائمين[٦]

وقديما تم توظيف الشعر في الصراعات السياسية،حيث ظهر الشعر السياسي الذي يتصل بنظام الدولة الداخلي ونفوذها الخارجي وموقعها بين الدول، واعتبر وسيلة للتعبير عن المشكلات السياسية والدينية وما انبثق عنها من أحزاب وفرق[٧] ويعتبر الشعر السياسي من أبرز فنون الادب في العصر الاموي ، الأمر الذي أثر في حركة الشعر لمزيد من الثراء، لكن

العصر العباسي شهد تراجع الشعر السياسي بسبب اجبار الشعراء على ترك السياسـة لاهـل السياسة.

و حديثا استمرت علاقة الأدب بأنواعه المختلفة مرتبطة بالحياة السياسية بشكل أو بآخر، فمثلا اعتبر الأديب المصري نجيب محفوظ أبرز من استخدم طريقة الحيلة فـي مواجهـة تسـلط النظام، بعد أن استخدم رواياته لطرح أفكاره السياسية دون أن ينتمي الى أي تنظيم سياسـي، حيث أبرز أفكاره من خلال: الكفر بالدكتاتورية والاستبداد، الكفر بالعنف الـدموي، اعتمـاد التقدم على قيم الحرية وحقوق الانسان[٨] وفي هذا الوضع تم استخدام الأدب في توضيح الافكار الرئيسية تجاه السلطة والمجتمع والايديلوجيا بأسلوب فني شيق.

ولما كان الدور الاساسي للاديب مساهمته في احداث التغيير والاصلاح أو انتاجيته للفساد،فهذا يعتمد على ما يتم طرحه من رؤى، فإذا تملك الأديب المقدرة الكافية على كسر أغلال السلطة ومحاولة فضحها عند توفر الوسائل والاساليب لذلك، يكون قد ساهم فـي دوره الطبيعـي لان موقع الاديب يفرض عليه كشف الحقائق وعرضها بموضوعية وتجرد وأن يسـمي الاشـياء بأسمائها،فهو حامل رسالة نزيهة ويقوم بمهمة شريفة هـدفها فـي نهايـة الامـر الاصـلاح والتحسين[٩].

فالأصل أن للأديب دور صعب ومركب ومعقد، فالأدباء هم من يسـتعيد خلاصـة الماضـي ليكون خبرة الحاضر من أجل المستقبل، وهم من يؤرخ للمرحلة ومن يساهم في ترشيح قـيم الجمال والحق والخير، ويأتي التأكيد على دور الاديب العربي بشـكل خـاص لا سـيما وأن ضعف أداء المؤسسات المجتمع المدني جعلها قاصرة عن احداث أي تغييـر ملحـوظ، فبعـد هيمنة الدولة على هذه المؤسسات وإلغاء دورها أو تقزيمه، نجـدها تحولـت نحـو الأدبـاء والمثقفين ومارست ما هو أشبه بالتأميم على أعمالهم ، الأمر الذي حال دون دون أداء المثقف مهامه الأساسية .
والواقع يشير إلى أن الأديب كثيرا ما كان يصطدم أثناء قيامه بوظيفته برجال السياسة الـذين يتمتعون بالسلطة والقوة السياسية ،جنرال فرنسي قال: " عندما أسمع كلمة مثقف اضع يدي في مسدسي"[١٠]رغم ذلك تفاعل العديد من الادباء العرب مع السياسة بـدرجات متفاوتـة،فالبعض اكتفى بمتابعة الشأن السياسي والتعليق على الاحداث من حولـه، والـبعض الآخـر فضـل الانضمام الى تنظيم سياسي، في الوقت الذي توجه فيه الفريق الثالث الى طرق التحايل فـي

التعامل مع السلطة السياسية، ومحفوظ من الادباء الذين أخلصوا للرواية وعن طريقهـا نقـل أفكاره السياسية ازاء السلطة والمجتمع والايديلوجيا١١. فهو يقدم الأدب بوصفه نوعـا مـن أنواع المقاومة بالحيلة للقهر الذي يمارسه النظام السياسي على الجماهير فيفتح مجالا للتنفـيس عما يجيش في نفسه تجاه السلطة، ولكن لايستطيع البوح به بشكل مباشر خوفا من المساءلة.
وهذا الأسلوب يعتمد على استخدام الرموز واجراء تعديلات على ملامح بعـض الشخصـيات وأسمائها، أو إضافة شيء من الخيال على الاحداث واسقاطها على الواقع في ثوب قصصـي يجعل الاديب اكثر أمانا في مواجهة رقابة النظام التي يفرضها للحد من حرية التعبير[12]

ما ذكر لايعني أن الطبيعي أن لاتكون علاقة الادب بالسلطة ومواجهتها الا بالحيلة فقط، كمـا ليس الطبيعي ان تقوم علاقة طردية بين القهر السياسي والابداع الادبي وتطوره، فكثيرا مـا كان الادب في مواجهة بين المثقف والسلطة.
لكن المطلوب من هذه العلاقة تحرير الاديب من القيود والظلم والقهر وقصـورية التفكيـر. المطلوب أن يوجه الادب للكتابة عن الانسان بعيدا عن التقييـد بمـذهب سياسـي لان الادب الموجه يموت بسرعة.
في الوقت نفسه يرى الدكتور محمد جمال الطحان ان من غير الصحيح اعتبار كل مثقف او أديب معارضا، فليس الهدف الاساسي للادب المعارضة الدائمة للسـلطات، فالأديـب مسئول بشكل أو بآخر عن تنصيب السياسي في مكانه[13]

واقع الأدب في البلدان العربية

لقد ساهم النظام السياسي العربي في اعاقة انتاج المعرفة المرحلة الارقى مـن اكتسـاب المعرفة في أي مجتمع، والذي يعني اعاقة اضافة أي رصيد معرفي لصـرح المعـارف الانسانية التي يقبل البشر على الاستفادة والاستزادة منهـا، لان بنيـة أساسـها قدسـية الحريات واستقلالية الكتابة هي الارضية المناسبة لذلك، إلى جانب إعطاء أولوية إلى بيئة قوامها التمتع بالحريات الاساسية وعلى رأسها حرية الراي والتعبير ،ما يعني وجود نظام سياسي حاضن لهذه البيئة الصحية.
والأصل أن الأدب يعمل في بيئة صحية تنعم بالحرية والديمقراطية للتمكين مـن انتـاج الإبداع، فإبداع بدون مشاكل بحاجة الى حرية في المجتمع طالما أن الادب صناعة والعلم به له شروطه وضروراته، ليظهر أهدافه على أسس ملائمة وسليمة.فصحيح أن الحريـة المطلقة للأديب شيء وهمي،إلا أن الالتزام دون حرية عبودية وقهر أيضا.

والواقع الذي يعمل فيه الادب يشير الى أن معظم الحكومات العربية تفرض رقابة صارمة على حرية الرأي والتعبير مما فرض قيودا على الإبداع، وقد تكون احصـاءات تقريـر التنمية البشرية العربية لعام ٢٠٠٣ أكبرمؤشرعلى ذلك.

أما السبب الرئيس وراء هذا التقييد، فقد يكون الدور المهم الذي يلعبه الاديب فـي النقـد والتغيير السياسي، فالواقع يشير إلى تحكم الأنظمة السياسية في اختيار وابقاء ما يروق لها من ابداعات لتحذف وتبتر مالا يروق لها، بعد أن أصبح العمل الأدبي العربـي واجهـة للعمل السياسي وامتدادا له١٤، وتعتبر أقوال الأديب المصري الراحل يوسـف إدريـس أوضح من تعبير عن هذا الواقع مثل قوله: "إن كل الحرية المتاحة في العـالم العربـي لا تكفي كاتبا واحدا لممارسة إبداعه بشكل كامل".

هذا الواقع بحد ذاته يعمل بشكل معاكس للمؤسسة الأدبية، فالأدب يتوهم بأن له دوره في الوقت الذي يعتبر فيه تابعا، والأديب في هكذا بيئة مقيدة لا يستمد موقعـه مـن خـلال انجازاته الأدبية، بل من موقعه السياسي داخل النظام، لان من يرفض هذا الواقـع ينظـر اليه النظام بعين الريبة محاولاطمسه وتهميشه ،وهذا الواقع تجسده بلدان الوطن العربيـة على حد سواء١٥

من هنا تظل العلاقة متردية التي تحكم النظام بالوجوه الادبية والثقافية تبعا لدرجة الارتباط او الانفصال بينهما، طالما أن التمايزات لا يحكمهـا العمـل والانجـاز، بـل الانتمـاء والاصطفاف السياسي والحزبي الخاص.

فقد أصبحت شريحة كبيرة من الادباء أبواق للسلطة بعد ان انساقوا معها وعملـوا علـى تبرير مواقفها ،الأمر الذي ارتكب معه الأديب جرما لا يقل خطورة عن الجرم المـادي، فهو يجسد صورة من صور الفساد لأنه لتحقيق مصالحه والوصول الـى مبتغـاه يـداهن للسلطة ويخدمها في آن واحد، لا سيما وأن ما يصدر عنه أمر فردي لكن تطبيقه وتـأثير نتائجه تؤثر على المجتمع بأكمله.

وهذا الوضع هو أشبه ما يسمى بالاستسلام الذي فرضه الخمول أو الخوف وعدم المقدرة على استشراف مستقبل آخر، فيغرق الأديب في هذا الضياع.

ومن جديد لا بد من التأكيد على أن السياسي يريد وضع الاديب تحـت قبضـته، وسـمة الأدب العربي اليوم هي تبعية الادبي والثقافي للسياسي الذي أصبح سمة التاريخ السياسي العربي،بعد أن طبع الواقع الثقافي والادبي وعلاقة الادباء فيما بينهم بسمات سلبية أثـرت بدورها على مسار المجالات الادبية والسياسية، ونشبت حروب بينهما منطلقاتها سياسية لا

أدبية، وبما أن الحكم الوحيد في هذه العلاقة هو الانتماء السياسـي أو الايـديلوجي ظـل الخاسر الاكبر هو الادب والفكر الادبي والابداع الأدبي.

فواقع الأدب اليوم يشهد ضبابية ثقافية وتلقائية تدور حـول محـور الفوضـى الفكريـة، فالمنظومة الأدبية باتت سلطوية مستبدة ومعتمدة ممارسات سياسية[16] بعد أن عمل النظـام السياسي على اخراج الاديب من دائرة حراكه حتى لا يخترق الخطوط الحمـراء ويعيـد تشكيل الوعي لدى الناس، فعملت على تكبيله بمحرمات سلطوية لا يمكن تجاوزها لضمان استمرارية الظلم في جو يسوده فراغ ثقافي، في الوقت الذي عملت على استثمار ما تبقـى من ابداع أدبي وفني لتصب في مصلحتها[17]

يشير تقرير التنمية البشرية العربية لعام ٢٠٠٣ أن أفضل رواية فازت كافضل عمل أدبي عام ٢٠٠٠ منع الرقيب توزيعها، وخلفيـة هـذا المنـع تـدور حـول محـور الامـن والنظام[18] ليصبح موضوع الحريات رهين قضايا الأمن والرقابـة والتقاليـد الاجتماعيـة، ويصبح أول ضحايا تجاهل الحريات وقمعها الابداع والابتكار، بعد أن أصبح العمل الادبي لخدمة التوجه السياسي، وهذا بدوره أدى الى الانشغال عن قضايا الادب ومشاكله.

وكان تقرير اتحاد الكتاب العرب حول وضع حرية التعبير في المجتمعات العربية قد أشار الى أن الوضع مأساوي جدا، معبرا عن قلقه وتوجسه من استمرار القيود المفروضة على تلك الحرية بشكل عام ومن الاعتداءات التي تقع على حقوق وحريات الادباء في المنطقة العربية في مختلف أرجائها". حيث رصد التقرير ١٤ حالة انتهاك لحرية التعبير تمثلت في اعتقال وحبس كتاب وصحفيين ومثقفين بسبب ما تم نشره، إلى جانب الاستمرار في وضع القيود التشريعية على حرية التعبير، وملاحقة دور النشر قضائيا بتهمة توزيـع مـا هـو محظور، وممارسة الرقابة بأشكالها المغلوطة[19]

يقول الباحث محمد جمال الطحان في جدلية العلاقة بـين الثقافـة والسياسـة: أن الأدب العربي يصبح فاعلا بحق حينما ينعم بالحرية وتتوقف مصادر السـلطة السياسـية عـن محاربته[20]

فمثلا اعتقلت السلطات المصرية الشاعر المصري أمين الاديب بسبب انتقاده الاوضاع في مصر خاصة الفساد الحكومي وقانون الطوارئ، فقانون الطوارئ بالنسبة للنظـام يشـكل صمام الامان أمان النظام وليس أمان الشعب أو البلد.

لهذا كان على المشتغل بالادب أن يكون"المناضل" السياسي أولا والكاتب أو الاديب ثانيـا لانه ياخذ تعليماته من السياسي أو المسؤول الحزبي الذي يصدر لـه التعليمـات لتوجيـه المؤسسة الأدبية، لتظل أبدا ظلا للمؤسسة السياسية طالما ظلت الاجهزة هي الداعم المالي للأدباء.

ولما كان الطبيعي أن للادب دور هام في اخراج ذهنية الانسان العادي من قيم مثل التحيز ورفض الاخر الى انفتاح على الآخر واحترام التنوع واعتماد الحوار في الحراك السياسي والاجتماعي والثقافي، فعلى الأديب الحق أن يقول الحقيقة للحاكم المستعصي على الاحتواء ،ومن المهم جدا التواصل بين السلطة والادب لخلق مجتمع صحي.

والكاتب الحقيقي هو من يستند الى معايير واضحة في رؤيته للامور من دون الارتهان الى ايديلوجيا النظام، لا سيما وأن سمة الايديلوجيا الثبات بدلا من الارتهان الى الواقع والمعطيات والمتغيرات.

والأديب هو الذي يستمد مواقف صريحة وجريئة من القهر والظلم والفساد والاستغلال، من التبعية ويعيد إنتاجه بإبداع، دون ذلك لا يعتبر أدبا لانه يصبح خارج حدود الكلمة الصادقة التي تحمل رسالة سامية تدعم فيه الإنسان. فالواقع اليوم كما هو حاله بالأمس غلبت عليه الايديلوجيا، بعد أن أصبح الفكر الايديلوجي مهيمنا على الفكر العلمي والمعرفي في العلوم الإنسانية والاجتماعية. فهو تواطؤ الفكري للسياسي مما جعل الفكر يتخلى عن دوره الحقيقي، لان الوظيفة الحقيقية للفكر والثقافة المعارضة والنقد وليس الفكر المبرر للسياسي.

وتواطؤ الفكر مع السلطة جعل منه فكرا جامدا مساعدا للسياسي، بل سلطة قمعية تمنع الرغبة في التحرر، بعد أن ظهر اليوم ما أصبح يعرف بأدب الالتزام أو أدب المواقف المتأثر بالايديلوجيا، الذي يحاول تبرير المتغيرات الاجتماعية السياسية، نتيجة وجود العديد من محترفي بيع الحديث السياسي والايديلوجي.

أزمة النشر العلمي

بالاطلاع على النسبة التي تساهم فيها البلدان العربية من النشر العلمي، تشير إحصاءات عام١٩٩٥ إلى أن هذه النسبة أقل من سدس نصيب العرب من بين سكان العالم (7,%)، وهذا يرجع إلى نسبة مساهمات العرب المتواضعة في نشر المادة العلمية والتي بلغت عام ١٩٨٧ 8,%،وإمعان النظر في هذه النسب يقودنا إلى بيئة مجتمعية وسياسية مقيدة استمرت في فرض قيودها، خاصة السياسية منها الأمر الذي انعكس على نسب النشر العلمي العربي. و يعزو أغلب الباحثين والمفكرين في مجال النشر العلمي أسباب أزمة هذا المجال في البلدان العربية إلى معيقات أهمها:

الرقابة: سعت الرقابة إلى الحد من التعبير عن الأفكار والآراء، وكان الدافع وراءها الخوف من تقويض النظام السياسي أو المجتمعي الذي تلتزم السلطة السياسية بحمايته .

وتمارس الرقابة عن طريق السلطات الحكومية وأجهزتها . وعادة ما كانت تفـرض بحجـة الحفاظ على الاستقرار والأمن العام للدولة، فدائما كانت الكلمة بالنسبة للسلطة السياسية سلاحا ذا حدين، فإلى جانب دورها في البناء كانت مصدر تهديد لبقاءها واستمرارها، لهذا اتخذت من الرقابة أسلوبا لمنع الكلمة أو لتعديلها أو السماح بنشرها، الأمر الذي تطلب الرقابـة censor ship، ومن شروطها[٢١]

١. عدم المساس بأشخاص النظام ورموزه بالتعرض أو التجريح أو التشكيك فـي أمانتهم.

٢. عدم المساس بقضية الأمن الداخلي، والسياسة الداخلية.

٣. عدم المساس بسياسات الدولة الخارجية أو بالدول الصديقة لها.

٤. عدم المساس بالدستور بالذم أو الانتقاد.

وفي دراسة اعتمدت عينات من مصر ولبنان وليبيا والكويت والعراق وسـوريا حـول واقع إنتاج ونشر المطبوعات العربية، من خلال فريق متعدد التخصصات، ضم أخصائي علم النفس الاجتماعي، واختصاصيين بالدراسات الاجتماعية الاستقصائية الإحصائية، واختصاصي قضايا حقوق الإنسان والقانون، ، تم التوصل إلى محدودية نشر المطبوعة العربية، ليس بسبب المادة المطبوعة والتي لم تكن بمستوى أقل من مثيلاتها في الدول المتقدمـة، وإنمـا بسـبب سلطة الرقابة[٢٢]،بعد أن ظلت المطبوعة العربية تحتكم لاتجاهـات الأنظمـة السياسـية التـي تفرضها (الرقابة) ، بدلا من احتكامها إلى الوعي العربي الذي تظل الأبـواب مغلقـة أمـام مطالبه .

وأصبحت هذه الرقابة المفروضة من قبل النظام السياسي بحجة حماية المصلحة العامـة تؤدي إلى إشاعة جو من التردد والحذر لدى الكاتب والمؤلف والناشر، وتقود إلى إقامة رقابة ذاتية على أي عمل فكري يقومون به، قبل أن تقوم بها الجهات الرسمية.

فالكاتب يفكر مليا قبل الإقدام على كتابة موضوع له علاقة بالأوضاع السياسية، خاصـة إذا كان لا يؤيدها، كذلك هي الحال خلال مراحل الكتابة والتأليف، فكل كلمـة تكـون تحـت إمكانية مراجعة معمقة لها، لمعرفة أبعادها على النظام السياسي ومدى تقبله لها.

ويستمر الوضع مع دور النشر التي تعيد التعمق في أفكار المؤلف وفقراته، وكثيـرا مـا ينتج عنه رفض النشر بسبب كلمة أو فقرة يراها الناشر مزعجة للنظام. كل ذلك أسهم في منع التداول بروائع اغنت التراث العربي مثل كتاب "ألف ليلة وليلة" وكتاب "النبي" لجبران خليـل جبران. أما بالنسبة لحدود هذه الرقابة فتدرجت حسب المستويات التالية٢٣

١. منع النشر كليا إذا تضمنت المادة المنشورة ما يتعارض مع اتجاهات وسياسـات النظـام وبشكل شامل.

٢. حذف بعض النصوص المتعارضة مع رؤية النظام والسماح للباقي بالنشـر بعـد إعـلان الرقيب مخالفتها لقواعد الرقابة.

٣. تغيير عنوان المادة المنشورة، إذا كان موضوع المادة لا يخالف قواعد الرقابة والعنـوان فقط هو المخالف، فالرقابة تطلب من المؤلف تغييره.

٤. مصادرة المادة بعد النشر، قد يغفل الرقيب خطورة مادة أو موضوع معين قبـل نشـره، ويجهل تأثيره على جمهور القراء، وبعد أن ينشر في الأسواق ويتضح أثره، يأمر بجمع النسخ ومصادرتها.

٥. مراقبة الإنتاج الفكري القادم من الخارج، فأحيانا يمنع إدخـال كتـب معينـة أو تحـذف نصوص أو مقاطع أو صور منها، كذلك إذا دخل كتاب معين وأحدث تأثيرا علـى الجمهـور وبشكل لا يتقبله النظام تتم مصادرته.

ويدخل تحت موضوعة الرقابة على النشر العلمي أزمة العلاقات السياسية المتردية بين بعض البلدان العربية، فكثيرا ما أدت إلى عرقلة حركة الكتاب بين الدول العربية لتصب فـي أزمة النشر العلمي، كما ويندرج تحت العنوان نفسه ما يتم فرضه من جمارك تعسفية فرضتها أنظمة البلدان العربية على حركة النشر، وكثيرا ما شكلت حجر عثرة أمام انسـياب الكتـاب العربي، الأمر الذي جعل الكتاب العربي يعاني من المحلية الشديدة في التسـويق والتوزيـع، فنادرا ما يجد القارىء كتب بلد عربي تنتشر في بلد عربي آخر، اللهم إلا في المعارض، مثل معرض القاهرة الدولي للكتاب، والأمر الأسوأ في الرقابة الإستعانة بأشخاص تنقصهم القـدرة العلمية على التمييز بين الغث والسمين من هذه الكتب،وقد تستعمل عقوبات الرقابة من حبس وغرامة أو كليهما معا، وقد يلجأ إلى مصادرة الأدوات التي استخدمت في طباعة الكتاب دون وجه حق.

يقول المفكر برهان غليون في الرقابة: "إن الجو الذي تخلقه المراقبة على الكتـب والفكـر لا يعطل فقط ملكة التفكير لدى المثقفين ويشجعهم على الالتحاق بالسلطة،ولكن يعمل على تعمـيم الامتثالية وفقدان الروح النقدية".

وقد ظهرت أزمة الرقابة والإنتقائية في نشر الكتب في معـرض فرانكفـورت الـدولي للكتاب عام ٢٠٠٤، حيث تم إقصاء بعض المفكرين والمثقفين العرب سواء من قبل دولهم أو من قبل الجامعة العربية، لأسباب تتعلق بمواقفهم من أنظمة بلدانهم السياسية، الأمر الذي أثـر على تقديم العرب أنفسهم كصناع ثقافة ومشاركين في الحضارة العالمية، وعلـق علـى هـذا الموضوع الدكتور "وحيد عبد المجيد" نائب رئيس الهيئة العامة المصرية للكتاب مشيرا إلـى أن اختيار المثقفين والمشاركين في المعرض كان يتعلق بطبيعة القائمين على عملية الإعـداد للمشاركة، حيث تغلب العلاقات الشخصية وعلاقات الولاء وهذه أمور أثارهـا الكثيـر مـن

الناشرين ممن تم استبعادهم من المشاركة أو الذين استبعدت كتبهم[٢٤] فقد كان لخلفية الجهـات المشرفة على عملية المشاركة في المعرض الأثر الأكبر في مستوى المشاركة العربية الغيـر مناسبة، والمتمثلة بالفريق الرسمي الممثل بجامعة الدول العربية والذي يوصف بأنـه فريـق بيروقراطي أعضاءه يشاركون بحكم وظائفهم التقليدية الأشبه بتأدية الواجب، بعيـدا عـن أي تصور أو هدف لمعنى المشاركة العربية الفاعلة في مثل هذه المعارض الدولية.

الإنتاج الفني والأدبي : المسرح والسينما

تظهر أهمية المسرح والسينما-اللذان لا يقل دوريهما في التربية والتثقيف والإلمام بالقضـايا المحلية والخارجية - من خلال اشتمالهما على جوانب أخرى توجيهية وتهذيبية وتثقيفية، تسهم في تعريف الجمهور بأهم مشكلاته وأزمات مجتمعاته.

و أهم ما يسهم به هذان المجالان الفنيان:

١. توضيح الأهداف الديمقراطية وبلورتها في نماذج مقبولة .

٢. غرس مثل وقيم ديمقراطية بناءة، مثل الابتعاد عن الاعتماد علـى الغيـر، والأخـذ بالتفكير العلمي كأساس لدراسة المشكلات وحلها .

٣. التأكيد على الاتجاهات والأفكار التربوية الصحيحة في المجتمع، من خلال معالجتهـا القضايا الاجتماعية بموضوعية وعلمية .

و البحث في واقع السينما والمسرح في البلدان العربية وطبيعة الواقع الذي يعيشان فيـه يشير إلى أن هذه المجالات لم تسهم بالقيام بوظائفها المعرفية البناءة، بل ظلت غارقـة فـي المساحة التي حددت لها للحراك ضمن الخطوط الحمراء التي فرضها الرقيب والحسـيب ولا يجوز تجاوزها. وفيما يتعلق بالسينما في البلدان العربية ورغم تزايد أعداد السينمائيين الـذين يعملون في هذا المجال، يبقى الإنتاج السينمائي في بعض هذه البلدان نادرا، أو غير موجـود

وقليل ومحدود في بلدان أخرى بسبب غياب المؤسسات الداعمة لهذا القطـاع، وبسـبب مـا يفرض عليه كباقي وسائل الإتصال من قيود ورقابة، فقد تراجع هذا الإنتاج بشـكل ملحـوظ، خاصة في فترة الثمانينات، وهذا عائد إلى ما واجهته البلدان التي قامت فيها هذه الإنتاجات من أزمات اقتصادية أو تحديات أمنية5[٢]

ففي الوقت الذي يعتبر فيه الفيلم السينمائي أداة تعبير، تخاطب وجدان المتلقـي وعقلـه، لتسهم في تقديم الأفكار والمعارف، وتثير داخله طاقات مبدعة لإدراك ما يـدور حولـه فـي البيئتين الداخلية والخارجية من أحداث، تشير الدراسات إلى أن جميع الدول العربية لا تكترث بالسينما كثقافة جماهيرية لها دور في بناء المنظومة المعرفية، فالسينما كباقي وسائل الإتصال تعاني أزمة في الإنتاج، حيث بلغ الإنتاج العربي للأفلام عام ١٩٨٧ 2,0% من إجمالي الناتج العالمي، ولا يتعدى مالدى العرب من دور سينما على مستوى العالم 6, .٢٦

أما أسباب معاناة هذا القطاع، فترجع إلى خضوع الإنتاج السينمائي لتشـريعات وقـوانين تجارية هدفها الأول الربح بعيدا عن أدنى خدمة معرفية وثقافية باعتبارها أداة معرفية، فالنظام السياسي يتعامل معها كباقي دور الملاهي والكباريهات، يفرض عليها الضرائب الباهظة ممـا يحد من قدرات الفرق الخاصة لتقديم عروضها، كذلك فالجهات المسؤولة عـن الرقابـة فـي الدولة وحدها توقف عرض كل ما يتعارض مع أفكارها وتوجهاتها وكل ما من شأنه أن يثيـر الرأي العام ضد النظام.

فعدم تفهم المسئولين في الأنظمة السياسية وممارستهم الضغط على العمل المسـرحي أبطـل مفعول الحركة المسرحية، بعد أن بات الخلل في المسرح اليوم متمثلا بالواسطة بين المسـرح والمتلقي –السياسة- فالأحزاب السياسية في البلدان العربية تستخدم المسرح ولا تخدمه ،وكأنها تريد أن تحوله إلى وسام وتاج فوق رأسها.

ومن الامثلةعلى الرقابة المفرطة انه وفي عام ١٩٧٤ قام الرئيس السوري الراحل "حافظ الاسد" بطرد رئيس مؤسسة الأمة للسينما والتي عملت كأداة دعاية للنظام، كذلك عندما حـاول الكثير من كتاب السينما السوريين كتابة أفلام ملتزمة بالواقع وجدوا سيف الرقابة يعترضـهم،

حيث تم منع خمسة أفلام من العرض من مجموع ٢٤ في العام نفسه، ومن هؤلاء المنتجين "عمر عامر علاء"،إذ أنهى فلمه الروائي "الحياة اليومية في قرية سوريا" ١٩٧٤، وقد وضح من خلاله إخفاق برامج حزب البعث ، الأمر الذي ضايق من شاهده من أعضاء الحزب فحاولوا الضغط عليه لتغيير الخاتمة، إلا أنه رفض، مما دفعهم إلى حجز النسخ ومنع عرض الفيلم[٢٧] وهذا التقييد والتحكم بالإنتاج السينمائي سببه سيطرة النظام السوري على توزيع الأفلام من خلال احتكاره للمؤسسة الحكومية التي تبث، حيث يفحص الرقباء جميع الأفلام التي تنتج.

يضاف إلى ذلك أنه وفي الوقت الذي لايستطيع الإنتاج السينمائي تعويض تكلفته من عائد السوق المحلي للبلد المنتج، يصبح على المنتجين الأخذ بعين الاعتبار القوانين الرقابية في أكثر من بلد عربي لضمان انتشاره، الأمر الذي يعرقل تنمية القدرات الإبداعية وانتشار ثقافة الفن التي لا يمكن تحييد دورها الفعال في بناء مجتمع المعرفة.

والمسرح أيضا لم ينج من قيود النظام السياسي ورقابته، فالنص المسرحي يخضع لمراجعة الرقيب كشرط للحصول على إجازة عرضه، من خلال تقييده باللوائح المنظمة للرقابة على المسرح والتي كثيرا ما وصفت بالفضفاضة، لما تسمح به من تفسيرات متعددة، تبعا لرؤية النظام الحاكم أو الرقيب، فكثيرا ما يتم رفض نصوص مسرحية بحجة مخالفتها الآداب العامة أو المصلحة العليا للدولة، وهي في حقيقتها تنتقد الوضع القائم وممارسات الجهات الرسمية، الأمر الذي أدى إلى تعميق أزمة المسرح العربي .

وقد لعب المسرح بسبب ارتباطه بالجهات الرسمية المشرفة عليه دورا هاما في دعم أيديولوجيا النظام ، فواقع المسرح في أي بلد عربي يخضع لمراجعات الرقيب وضوابطه وشروطه والقوانين المنظمة للرقابة عليه بشكل لا يمكن إلا أن يعود بالمسرح إلى الخلف بعيدا عن أي نشاط مسرحي هدفه التوعية، والتثقيف وإثارة ملكات التحليل والتفكير الضمني لدى المتلقي.

الفن القصصي (الرواية والقصة)

تسهم الرواية والقصة في توعية المتلقي وتعليمه ورفع مستواه، لأنها من صنوف الفنـون الإبداعية، فهي إلى جانب مساهمتها في التعليم والتوعية تفتح آفاقا جديدة تسهم فـي اكتشـاف الحقيقة والوصول إلى كل ما كان مجهولا من قبل، معززة الإحساس بالواقع، ومحفزة علـى طرح الأسئلة والاستفسارات .

والأصل أن الرواية موضوع كشف يتبعه تمرد،فهي ناقد للواقع بسلبياته وتشتته وتمزقـه،وفي الواقع العربي المأزوم على كافة الأصعدة ،يصبح المطلوب تحويل الرواية إلى واجهة سياسية مع تقديم قيم جمالية متميزة.

أما عن الواقع الذي تعمل فيه هذه المجالات الأدبية، فعلى الرغم من الخطابات الرنانـة التـي كان ولا زال يطلقها زعماء الأنظمة السياسية في دعمهم وتأييدهم ، يكشف الواقع الذي تعمل فيه مدى هذا التناقض وبشكل سافر.

ومن هذه الخطابات والشعارات مقولة الرئيس المصري الراحل "جمال عبد الناصـر" حينمـا أعلن " كيف أقود بلدا فيه عباقرة مثل طه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم[٢٨]

كذلك هو الرئيس السوري الراحل "حافظ الاسد" بإعلانه أن الاهتمام بهؤلاء المبدعين هو إحدى الضمانات التي تعزز من حضارة الأمم وترفعها إلى مصاف الدول المتقدمة[٢٩] كذلك هم باقي الرؤساء والزعماء، إلا أن هذا التأييد والدعم كان وما زال قاصرا على من يكتب فـي ظل النظام، ومن يعزز من بقاء النظام، ويدعو لاستمراريته، بعيدا عن أدنى تأييد ومـؤازرة لمن هو في اتجاه آخر، خاصة الكتاب المعارضين الذين تم التعامل معهم على نحو آخر عززه السجن والنفي والتعذيب وغيرها من صنوف العقاب والتهميش وقتل الإبداع والخلق الفكري .

فالواقع البنائي والمعرفي لهذه المجالات الإبداعية يشير إلى أنها ما زالـت بعيـدة عـن وظيفتها التنموية والتنويرية وضرورتها الحضارية، بعد أن أصبحت في أسفل سلم اهتمامـات المشرفين عليها والمنظمين لعملها، والذين تمـثلهم الجهـات الرسـمية المشـرفة والمنظمـة والضابطة لهذه المجالات، فبدلا من إسهامها في عكس طبيعة الحيـاة العربيـة ومـا يعانيـه

المواطن العربي من أزمات، وبدلا من مساهمتها في نقل المعارف والثقافات بـين الشـعوب، لتغدو أشبه بسفير ثقافي لاتعيقه المسافات والحدود والحواجز، تظهر حواجز الرقيب والحسيب لتمنعها من تأدية وظائفها بالشكل الطبيعي، وتحيدها عن مسارها ضمن ما يلائم النظام ويدعم وجوده، والأمثلة كثيرة على ذلك كثيرة في البلدان العربية.

يعاني فواقع القصة والرواية العربية يعاني وضعا مأزوما أسهم النظام السياسي العربي فيه بشكل مباشر، بعدما عمل هذا الأخير على إلغاء مقومات هذه المجالات الإبداعية، وأهمها إطلاق العنان للحريات الفكرية والإبداعية، لتبقى هذه المجالات مكبلة بقيود وحواجز الرقيـب والحسيب التي أقامها النظام ، لرصد أعمال هؤلاء المبدعين وتقييم مدى توافقهـا وتوجهـات النظام بعد أن اعمل مقص الرقيب في تقطيع الرواية وبترها والأمثلة على ذلك كثيرة، يقـول الدكتور "محمد برادة" العلامة البارز في الثقافة المغربية والعربية الحديثة، الذي أسهم كثيـرا في مجال الإبداع الأدبي (القصة والرواية): إن إشكالية العلاقة بين الكاتب والمثقف من جهـة والسلطة العربية من جهة أخرى إنما هي بسبب غياب العلاقة الصحيحة بين المجتمع السياسي المتمثل بالدولة والمجتمع المدني، فالأسس التي قامت عليها الدولة العربية لم تكن منحدرة من ممارسة ديمقراطية، وإنما كانت فوقية تسلطية جاء بها إما الإنقـلاب العسـكري، أو عامـل الوراثة، أو أي ظرف آخر، هذه العلاقة خلقت نوعا من التبعية-تبعية المنصـب للسـلطة[٣٠] مثلما هي تبعية الشعوب العربية للأنظمة نفسها.

وهنا تظهر أزمة الحريات من جديد، حريات المواطن العربي الأساسـية بشـكل عـام، والحرية الفكرية بشكل خاص والتي عكسها هؤلاء المبدعون العرب، لتؤكد من جديـد علـى دور النظام السياسي العربي في مصادرة هذه الحريات، وتضييق الخناق عليها، بشكل عكـس نفسه على سلوكيات المواطن العربي وممارساته، وجعلها مكبلة عن أي نشاط إبداعي وفكري وعلمي بناء،لان المقصود بالحرية هنا ما يتجاوز حرية النشر والتعبير كونهـا مـن مظـاهر الحرية، لتصل إلى حرية الإبداع والفكر نفسها.

يقول الكاتب السوري "فاضل السباعي": بعد أن ازدهرت حركة النشر في سوريا في فترة السبعينات ، وبعدما ظللت أنشر إنتاجي الأدبي في القاهرة وبيروت تاقت نفسي إلـى العـودة والنشر في وطني، ففي إحدى المرات يقول قدمت مخطوطتي "رحلة حنان" إلى وزارة الثقافة، إلا أنها وبسرعة ردت علي بالتمنيات بحظ أوفر في المرات القادمة، وبعد أن أرسـلتها إلـى أعرق دار نشر في الوطن العربي، دار المعارف بمصر، ظهرت في سلسلة اقرأ (العدد ٤٠٣، اكتوبر ١٩٧٥)، ثم طبعت مرة ثانية في دمشق عام ٢٠٠٢، ومرة ثانية أرسـلت مخطوطـة باسم "حزب حتى الموت" إلى اتحاد الكتاب العربي، لتبقى عندهم عاما قبل أن يعتـذروا عـن عدم النشر، حيث ضاعت المخطوطة في أدراج المكاتب، ليتم نشر نسخة أخرى في بيـروت من خلال الأهلية للنشر والتوزيع فورا .[31]

المعيقات نفسها يؤكدها كاتب الرواية السوري المشهور "حنا مينة" مشيرا إلى أن اتحادات الكتاب العرب، لا خير منها ولا نفع، لأنها تنطق باسم السلطة التي تدعمها بالمال والمناصب، لتبقى أداة السلطة تنطق باسمها لا باسم الشعب أو الحق أو الخير أو العدالة . لهذا فمصـداقية الخطاب السياسي تتراجع أيضا [32]

أما كاتبة القصة والرواية العراقية "وفاء عبد الرزاق" فتقول: إنها خرجت من العراق فـي السادسة عشر من عمرها، لأن الذي يعيش في الخارج يتمتع بمساحة كافية من الحرية، رغـم محاصرته أحيانا بعيون السلطة الوطنية[33]

وفي حديث له عن مدى فاعلية الخطوط الحمراء في عصر الإنترنت وأثره علـى الإبـداع الروائي والقصصي في السعودية يقول الكاتب السعودي "عبد الله الجفـري": إن الإبـداع لا يهزم أمام الخطوط الحمراء، وإنما ينجح في التمرد عليها، بسـبب انفتـاح العـالم وسـرعة الإتصال، ولكن المطلوب على المستوى العربي هو إجراء التغيير الداخلي للقيام بالإصلاحات اللازمة ومحاربة الفساد والإعتراف بالأخطاء[34]

كل ما سبق ذكره يؤكد على ما يمارسه النظام السياسي العربي بحق الإنتاج الإبـداعي والفني والقائمين عليه، والذي لطالما بقيت شعارات النظام الرنانة تعلن عن التأييد والتشـجيع

والدعم له ولأربابه والتي لم تتعدى كلمات تخرجها الشفاه، ليزول مفعولها مباشرة وتذهب هباء منثورا، بعد أن ضيق النظام كثيرا ومن خلال أجهزته التي أقامها للرقابة والمحاسبة على كل كلمة تكتب، لتبقى مجالات الإبداع الفني والفكري في قبضته يوجهها بإشرافه ويملـي عليهـا الموضوعات التي يجب أن تتناولها، بعيدا عن كل ما يمس النظام ورجالاته، وبعيدا عن كل ما من شأنه تهديد هذا النظام وزعزعة استقراره المزعوم .

لقد كان أحد أولويات النظام حماية الجانب الخاص المتمثل بإبقائه على سدة الحكم، وبقاء من حوله من مثقفين وأدباء ومبدعين يروجون وينشرون الدعاية لـه عـن طريـق التعبئـة الجماهيرية بأفكار وآراء واتجاهات لطالما كانت مغايرة للواقع، بعكـس الأولويـة المعرفيـة والتثقيفية والتربوية التي أهملها القائمون على هذه المؤسسات الإبداعية، بعد ما وجدوا أنها لا تستحق الإهتمام الكبير والإنفاق اللازم، فهي ليست أكثر من فن شـعبي أو كتابـة خـواطر وهواجس ليس إلا،الأمر الذي قتل ملكة الإبداع والخلق عند الكثيرين من هـؤلاء المبـدعين، ودفع بعضهم للخارج لينشر إبداعاته التي يعلن عنها من خلال الجوائز العالمية التـي تتلقاهـا تلك الأعمال، في الوقت الذي بقي فيه جزء من هؤلاء المبـدعين أقـلام للنظـام وسياسـاته ومطالبه التي لا تنفك عن التفكير في أولوية واحدة-بقاء النظام وإلغاء كل ما يعارضه.

وقد جسد هذا الأمر واقعا إنتاجيا لمجالات الفن والكتابة، لطالما عانى من أزمات ومعقيـات، أولها حرية الفكر والتعبير والنشر، مما قزم من هذا الإنتاج وأضعف من مستواه،بعد أن أنكر النظام السياسي عليه وظائفه المعرفية البناءة، وجعله يسير وفق توجيهاته وخطوطه التي يحرم تجاوزها .

الأديب الحق

بداية لابد من التأكيد على أن الادب والاديب حالة واحدة الفصل بينهما غير ممكن، فما يصدر عن الاديب من أقوال لا يبتعد عن كونه مكون أساسي من مكونات شخصيته ووجوده والتـي بدورها لا يصدر عنها الا الجودة الادبية والصدق الأدبي وبالتالي نكون قد أشرنا الى الاديـب الحق، وفي حال عجز الأديب وقصوره عن الافصاح عن مكنونات نفسه وشخصيته لا يمكـن

اعتباره أديبا، لهذا نجده الأقدر على الجمع بين إفصاحه السليم عما يجيش في صدره ويعتمـل في فكره من أفكار ومشاعر بعد إخضاع مشاعره وأفكاره لعملية صقل وتهذيب تتوافـق مـع معتقدات شعبه وموروثاته، مستندا إلى معايير واضحة في رؤيته للأمور من دون الارتهـان إلى ايديلوجيا النظام.

من هنا تنسب صفة الأديب الحق إلى من يمتلك الثقافة والفكر قبل القلم، ويعمل على توجيـه القارئ وإرشاده وإعطاءه فرصة لإعمال عقله ليغدو بذلك أشبه برسول في أعماقه، فهو يبحث عن الحقيقة ليكشفها للناس وينشر الجمال والخير والحب ويدافع عن المظلوم ويحارب الظلم.

وليحمل ما يكتبه صفة العمل الأدبي لا بد من أن تتضح فيه ملامح البيئة والمجتمع التي نبـت فيها، ليصبح له طعم التجربة الإنسانية والتربة الثقافية والحضارية التي تتواصل مع جـذوره وتغذيها. أدب تنعكس فيه معاناة الإنسان بسبب ارتباطه بالمجتمع وينعكس فيه واقع الإنسـان ومكوناته الجسمية والنفسية الاجتماعية، كما وينقل لنا طمـوح الإنسـان وأحاسيسـه وقلقـه وعواطفه وتحريضه المستمر ضد الواقع المأزوم، ليحول من حوله إلـى رافضـين للواقـع المعترض عليه لينهضوا لتغييره بواقع أفضل منه.

وعلى الرغم من أن الواقع العربي يشير إلى عدم بلوغ الإعمال الأدبيـة بعـد حـد التغييـر السياسي، إلا أن إدانة الأدب للواقع المحيط به تأسيس لواقع آخر ولقيم أخـرى، وبنـاء بيئـة جديدة تنشأ فيها أجيال تتمتع بقيم وإرادة واعـدة، لكـن الهرولـة وراء الغايـات الشخصـية والمصالح الضيقة لن توصل صاحبها إلى شيء ولا تقدم لمن حوله ما يخدم تطلعاتهم.

والأديب الحق من يدرك الخطورة التي يحملها قلمه، فهو أمضى من السيف، أما عدم الإدراك والاستهتار فلا يقود عمل الأديب إلا إلى الهدم بدلا من النهضة الفكرية والأخلاقية.

ولما كان اعتبار الأدب شيء والأديب شيئا آخر مستحيلا يصبح الأديب مسئولا أمام الناس لان نظرتهم له تكمن في اعتباره قدوة لهم فهو متميز عنهم.فقد سؤل الاسكندر المقدوني يوما: لماذا

تعظم مؤدبك أكثر مما تعظم والدك؟فقال: لان أبي سبب حياتي الفانية، أما مؤدبي فهو سـبب حياتي الباقية.

الخلاصة

يعتبر الأدب التزام مقوماته الصدق والمسؤولية الملقاة على عاتق الأديب من خلال الوحـدة والانسجام بين القول والفعل ،وتحقيق ذلك بحاجة إلى بيئة حاضنة قوامها الحريات وعدم تقييد الإبداع بالسياسة،لان توجيه الإبداع رسميا يجعل ما يكتب في حكم الدعاية والترويج لايديلوجيا النظام.

من هنا فان ترسيخ النظرة الديمقراطية للأنظمة الحاكمة تعتبـر الكفيـل الأساسـي بانجـاز الإبداعات الأدبية بأنواعها فكيف هو أدب إذا لم يكن له دور وموقف أساسـي مـن قضـايا الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات مثل حرية التعبير؟ مـن هنـا يبقـى الأدب العربـي ومستقبله مرتبطا بتغيير المناخ السياسي للأنظمة السياسية العربية من خلال الفتح والانفتـاح وقبول الآخر مهما كان فكره. فلا بد من توجه الأنظمة السياسية اتجاها ديمقراطيا حديثا يحترم الفكر، ويسمح بتبني جميع وسائله ووسائل التربية الثقافية وفي مقدمتها القيم الديمقراطية. يقول الشاعر:

لا تحسبن العلم ينفع وحده- - ما لم يتوج ربه الخلاق

والعلم إن لم تكتنفه شمائل- - تعليه كان قطيعة الإخفاق

كم عالم مد العلوم حبائلا- - لوقيعة وقطيعة وفراق

وأديب قوم تستحق يمينه- - قطع الأنامل أو لظى الإحراق

في كفه قلم يمج لعابه- - سما وينفثه على الأوراق

لو كان ذا خلق لأسعد قومه—ببيانه ويراعه السباق

فالأصل أن الدولة لم توجد لتحكم بالقوة والقهر، بل وجدت بالأساس لتحقيق الحرية –تلك التي اعتبرها الكواكبي اعز شيء على الإنسان بعد حياته.

ورغما عن الإشكاليات التي تواجه العمل الأدبي سيبقى التأثير الخارجي هامشيا إذا ما جسـد الأديب انتمائه لواقعه المعيشي، ليحوله من خصوصية إلى شمولية إنسانية تجعل منـه عمـلا باقيا خالدا لأجيال عديدة، مع ضرورة إلغاء تبعية العمل الأدبي للسياسي واستبدالها بالارتبـاط بينهما بشكل يضمن للعمل الأدبي استقلاليته وخصوصيته، ليكتسب بذلك صفة الأدب المخاص للإنسان والحياة والقيم- القادر على إزالة كل أشكال التسلط والاستسلام- تلك المفـاهيم التـي تشوه صورة الإنسان وحياته وعالمه .

والأدب الذي يستحق الحياة والاستمرار في التخليد هو القائم على قيم الإبداع والمـدافع عـن حقوق الإنسان وحرياته، فهو بذلك يصبح أدبا جميلا ممتعا ومسئولا- أدبا يرتفع بقيم الحيـاة ويجدد مفاهيم الحرية والسعادة- يفتح شهية الإنسان على الحياة والإقبـال عليهـا والشـعور بجمالها بسبب ما يحيط به من عدل وأمن واطمئنان.

رغم ذلك لازالت البشرية تنعم بتلك الكلمة رائعة الجمال التي يعود لها الفضل فيمـا حققتـه البشرية من رقي وتقدم،فلا زالت تقاوم رغم ضعفها ورغم محاولات الأنظمـة خفـت نـور أضوائها.

أخيرا وليس آخرا ، أبدا لم يقتصر دور الأدب و الأدباء على التحريض ضد الفساد والعنـف والأنظمة، بل يبقى لهم دور تحريضي آخر نحو اعتناق قيم الجمال والتح

المصادر والمراجع

١. أبو شمس الاهوازي، نصوص في تاريخ الأدب العربي. http/www.alahwaz.orj

٢. خلف علي حسن واحمد جاد، صاحب مطبعة يقاضي دور النشر. المطبعجي وصـي جديد على حرية الإبـداع فـي مصـر،جريدة الجريـدة عـدد ٣٨٩ ٢٠٠٨/٨/٢١

٢٠٠٨HTTP/WWW.ALJARIDA.COM

٣. مــــأمون أحمــــد مصــــطفى ،المكتبــــة ،نقــــد فــــي ميــــزان النقد .http/www.k128.com/books/showwbooks.php

٤. وليد إبراهيم قصاب ،عن وظيفة الشعر في النقد العربي القديم،مجلة التراث العربـي دمشق عدد ١٠٢. نيسان ٢٠٠٦. htpp/www.awu-dam.org

٥. "(موضـوع المحـور الأول.الإنسـان العربـي فـي مواجهـة الاسـتبداد.موقـع لسانhtpp/www.lesan.jerann.com

٦. ريـاض نعسـان أغـا، اليهـود يحلمـون بالسـيطرة علـى مكـة ثـم الفاتيكـان http/www.nabialrahma.com

٧. إبراهيم شحادة الخواجة، شعر الصراع السياسي في القرن الثـاني الهجـري، ص٨. ط١. الكويت ١٩٨٤

٨. عمار على حسن، روايات محفوظ السياسية بين التلميح والتصريح، ثقافة وفـن أدب وشــعر. إســلام اون لايــن ٢٠٠٠/١٢/٢٩ HTTP/WWW.ISLAM ONLINE.NET

٩. زهيــــر الحــــارثي ،الســــلطة والمجتمــــع المــــدني. فســــاد المثقفhttp/www.asharqalawsat.com

١٠. فلسفة الجابري بـين الثقـافي والسياسـي، إسـلام اون لايـن ،٢٤ ينـاير ٢٠٠٤http/www.islamonline.net

١١. عمار علي حسن، مرجع سابق

١٢. المرجع نفسه

١٣. الباحــث محمــد جمــال الطحــان وجدليــة العلاقــة بــين الثقافــة والسياسة .http/www.diwanalarab.com

١٤. سعيد يقطين،الأدب والمؤسسة والسلطة نحو ممارسـة أدبيـة جديـدة،ص٤٣ ،الدار البيضاء:المركز الثقافي العربي٢٠٠٢

١٥. المرجع نفسه، ص١٦٥

١٦. عبد الجبار ناصر، الكتب الأدبية بين قيود الرقابة والتطرف وأزمة القراءة

١٧. المرجع نفسه

١٨. المرجع نفسه

١٩. الكتـاب العـرب.حريـة التعبيـر أصـبحت فـي وضـع مأسـاوي http/www.moohet.com

٢٠. الباحث محمد جمال الطحان وجدلية العلاقة بين المثقف والسلطة، مرجع سابق

٢١. أحمد بدر،الاتصال بالجماهير بين الإعلام والتطويع والتنمية. تعليم المهنيـين المعلومات في بيئة الكترونيـة والتطلعـات العربيـة المسـتقبلية ، ص١٩٦،مجلـة الاتجاهات الحديثة في المكتبات والمعلومات،الناشر:احمد أمين القاهرة ٢٠٠٠ .عـدد ١٣

٢٢. زهير حطب، معوقات إنتاج المطبوعة العربية ونشرها في الـدول العربيـة وقضايا المجتمع المدني والنشر في الوحـدة العربيـة وقضـايا المجتمـع المـدني، ص١١٥-١١٧، ط١،بيروت:المؤسسة العربية للدراسات والنشر١٩٩٣ .

٢٣. شعبان عبد العزيز خليفة، النشر الحديث ومؤسساته، الإسكندرية: دار الثقافة العلمية، ١٩٩٨، ص٤١-٤٣

٢٤. جمال المجايدة، انعدام علاقة موظفي الجامعة العربية بالثقافة من تضمن الغاية المنشودة منه) عن القدس العربي email.alquds@qaluds.co.uk

٢٥. تقريـر التنميـة الإنسـانية العربيـة لعـام ٢٠٠٣ .نحـو إقامـة مجتمـع المعرفة،عمان:برنامج الأمم المتحدة الإنمائي ، ص٧٩

٢٦. سامية محمد جابر ونعمات أحمد عثمان، الاتصـال والإعـلام . تكنولوجيـا المعلومات، الإسكندرية:دار المعرفة الجامعية٢٠٠٠، ص٢٠١

٢٧. الفصـــل الثـــامن. الرقابـــة والثقافـــة والاعـــلام، http://www.ikhwansyria.org/human/hrw-1990-8.html1 انظـر أيضـا المناقشة في المنظمة العربية لحقوق الإنسان ١٩٨٨، ص٨٣

٢٨. عبد الحميد الصائح، دور المثقفين فـي مشـاريع السياسـيين، ١٣ أكتـوبر ٢٠٠٣، htpp/www.iraqgate.net

٢٩. المرجع نفسه

٣٠. محمد برادة، العلاقة بين المثقف العربي والسلطة، حكمت عليه بالتبعية والنفي عـن بيـان الثقافـة حـوار فتحـي عـامر، الأحـد ٨ أكتـوبر ٢٠٠٠، ع٣٩، http://www.albyan.com.ae/albyan/culture/2000issue/39/haywar/1.htm

٣١. الكاتب العربي في ظل السلطة، فاضل السباعي نموذجا، حوار فيلب سيار عن رابطـة أدبـاء الشـام ٢٠٠٣/١٠/١١، http://www.odabasham.org/odaba/noqqbalat-fadelhtm

٣٢. الروائي حنا مينة . مصداقية الخطاب السايسي، تتراجع . حاوره كريم الهراع أفـق ١٠ سـتمبر http: ofouq.com/today/modules.php??name=News afile = article aside-23

٣٣. وفاء عبد الرازق، الأفق المفتوح، حوار عبد الكريم الكيلانـي، ٢٢ نـوفمبر ٢٠٠٤) http://www.iraqwriter.com/disco/generalArticl/bbb/aaa-iraq-writer-general-arbicle-gen1724.htm

٣٤. عبد ا الجفري، في حوار نشرته الراية القطرية، حـوار رحـاب ضـاهر، http://www.aharnet.com/awraqmdawana/aljefri.htm